

النافذة السامي حول الثقافة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

- ٣ -

في ظل الأمن العالمي بين أعضاء الأسرة الدولية ، سواء تلك التي تتفق في نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو التي تختلف فيها .

ومن ثم لم يقف اختلاف هذه الفطام بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى حائلا دون تلاقيهما في الميدان الثقافي وكانت الدولة العباسية والدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين في ذلك الحين فقد امتدت رقعة الإسلام من أطراف الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وذلك فضلا عن امتداد أرجائهما شمالا وجنوبا .

وكانت إمبراطورية الروم المسيحية —

الإمبراطورية البيزنطية — تبسط سلطانها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا .

ولم تقتصر الإمبراطورية الإسلامية علاقاتها الثقافية على الدولة البيزنطية ، فقد امتدت بها إلى سائر الملك من الأمم . فسارت البعثات العلمية بين البلاد الإسلامية وبين القسطنطينية وروما ، وبملوك البلغار ، ودولة الفرنجية التي خرجت من أضلاع بيزنطة والمهند

ازدهر التبادل الثقافي في ظل الدولة الإسلامية . ولا سيما في عصور العباسين في بغداد والأمويين في الأندلس ، إذ أدرك الحلفاء . بعد أن اتسع نطاق الدولة الإسلامية وبسطت ظلها على كثيرون من بلاد العالم القائم حينئذ . أنه لا حائل بين العقيدة الإسلامية وبين انتشار في ربوع الأرض فلا ضرورة إذن للجهاد ما لم يصد عاد عن سبيل الله ، والأولى أن تدخل الدولة الإسلامية في علاقات عهديّة مع العالم المسيحي في ذلك الحين ومع سائر الأمم المجاورة ، حتى يتفرغ ولاة الأمور من المسلمين لشئون دولتهم المترامية الأطراف في ظل عالم يسوده الأمن والسلام .

وليس أفضل من رسالة الفكر المشترك سفيرًا لإنشاء العلاقات الودية وتوطيد الروابط بين الأمم والشعوب ذلك أن تتبادل المعانى والأفكار لا يقل أثرا في دعم الصلات الخديدة من تبادل المنافع المادية ، فهو يقرب بين النظارات المتباعدة ويحيي النفوس لاقلاع بذور الشك وعدم الثقة ، فيصبح الطريق ممهدا للتعاون والتضامن

بزنسطة صلحاءً وألق قطعة ذهبية في مقابل حضور هذا العالم إليه.

ولكن تيوفيل أصر على رفض هذا العرض بدعوى أن أسمات ليو كانت تتلاقى في شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية.

وحين نذكر قوة الدولة الإسلامية في عهد المأمون وسمى الدولة البيزنطية إلى خطب ودها والدخول معها في علاقات عهدية، مدرك مبلغ شأنه هذا العرض من جانب المأمون ومدى حرص تيوفيل على مناقسة الخليفة في ميدان البحث العلمي. فقد كان ما عرضه المأمون من توقيع معاهدة للصلح بين المسلمين - رغم أن ميزان القوى في صالحه - ينطوي على تضعيه منه. ولكنه أدرك بشاقب نظره وواسع فكره أن قドوم هذا العالم العبرى إلى بغداد كفاء هذه التضعيه ، بل إنه يرجحها إن لم يكن يصلها في الميزان الصحيح الأمور. وفي هذا أبلغ دليل على تقدير الحكماء المسلمين للعلم واعتقادهم به كدعاة أساسية من دعائم دولتهم وركيزة للمبادىء الإسلامية في أرجاء العالم.

ودلالة هذا الموقف كذلك هي حرص المأمون على جعل السلام من طريق التبادل الثقافي بدلاً للحرب. وقد كان في وسع الخليفة المسلمين أن يشن حملة تأديبية على الإمبراطور

[البقية على صفحة ١٨٨]

في جهودهم المبذولة في سبيل قضية العلم من أجل الحياة والحضارة والحرية، منهم من آمن بالعقيدة الإسلامية عن افتخار ويقين بالحق ، ومنهم من يقى على دينه لا يخشى جوراً عليه ولا اضطهاداً.

عوْقِفَ لِتُغْلِبَ الْمُؤْمِنُونَ فِي التَّنَافِسِ الْاسْلَامِيِّ
وفي ختام هذه الدراسة نسوق مشالاً تاريخياً يشهد بما بلغته الدول الإسلامية في هذهها الراهن من ذروة السبق باتجاه سياسة التنافس السلي حول الثقافة مع غيرها من الأمم والشعوب التي تخالفها في العقيدة.

فقد نما إلى علم الخليفة «المأمون» - وقد بلغ اهتمامه بالثقافة حداً ليس له سابقة في تاريخ النهضات العلمية - نباً عالم روسي نابغة يدعى «ليو» ذاع صيته في علوم الفلك والمهندسة. فتلقى إلى قدومه إلى ديار الإسلام للإفاده بعلمه الواسع في الرياضيات في تدعيم حركة البعث العلمي ، وأنفذ لذلك سفارة خاصة إلى الإمبراطور البيزنطي «تيوفيل» يطلب إليه حضور هذا العالم إلى بغداد لفترة قصيرة من الزمن . وقال : خليفة المسلمين في رسالته «إنه يعتبر ذلك حلاً وديباً غير أن تيوفيل لم يستجب له : وذكرت المفاوضات حتى بلغ الأسر بالمأمون أن عرض على أمير اعورد

ـ ولعنى بهم اليهود نظريين ـ إلى العرب معاصرة
ومستمرة وكانت ضعفاء أمامهم منذ وحدة
العرب أيام الخلافة الإسلامية وما أحرزوه
من انتصارات ودخول الناس كافة في دين الله
وكان التوازن الدولي في ذلك الحين في صالح
الإسلام ، ومن مصلحة الروم أن يكونوا هم
الساعين إلى توثيق العلاقات السلبية بينهم
وبين المسلمين لإقامة باسمهم ، ولا سيما وقد
بدأ التصدع يدب في أركان الدولة اليهودية
بعد أن قامت دولة الفرنجية وظهرت الأمم
البربرية المستقلة على حدود الرومان .
ـ تحمل المسئلية الأولى حديثـ .

النافس الشهي مستمد من الموارد

الدورة

وفي الحق أن سياسة الدولة الإسلامية في التنافس السلي حول الثقافة مستمدّة من المبادئ الإسلامية وليس تحظيطاً سياسياً، فهو ناجح أو مرحلة قارئية مؤقتة، ومصدق ذلك أنه كان يسع المسلمين أن يفرضوا قوتهم ونفوذهم في الميدان الثقافي أسوة بالمماليك السياسية والسكندرية، فينشرروا سلاح الثقافة على المسيحيين، يحررونهم منها، ولا يعطونهم بديلًا، يستولون، وهم الغالبون، على مكتباتهم وعلمائهم وثمرات حضارتهم ولا يديرون لهم الاطلاع على مكتنون العلوم الإسلامية ومعارفها، فقد كانت حاجة الروم

- وإنعنى بهم البيزنطيين - إلى العرب ماضية
ومستمرة وكانتوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة
العرب أيام الخلافة الإسلامية وما أحرزوه
من انتصارات ودخول الناس كافة في دين الله
وكان التوازن الدولي في ذلك الحين في صالح
الإسلام ، ومن مصلحة الروم أن يكونوا هم
الساهرين إلى توثيق العلاقات السليمة بينهم
وبين المسلمين انقاء باسمهم ، ولا سيما وقد
بدأ التتصدع يدب في أركان الدولة البيزنطية
بعد أن قامت دولة الف琨جرة وظهرت الأمم
البربرية المستقلة على حدود الرومان .

التي ازدهرت في العاصمة الإسلامية
واليسوعية ، فقد كانت بغداد وقرطبة
القسطنطينية راكزاً لإشعاع العلوم والفنون
والأداب تماض كل منها الآخر في التزود
بالعلم والثقافة والبحث عن كل جديد ومتذكر
من المعارف والأفكار ، وتشجيع العلماء
وطلاب على البحث والدراسة ، والإكثار
من البعثات الثقافية لتحقيق هذه الأغراض .
وقد لعبت تلك البعثات دوراً هاماً في إقرار
السلام بين تلك القوى الكبيرة التي كانت
تحتل السيادة الدولة حمنئذ .

مكتبة الفلك في ابو-هرام أساس

النماذج المعاصرة

وبرغم هذه الظروف لم يعمد المسلمين إلى فرض حرب تقافية على محسك المسلمين لأن هذه الحرب منافية لمبادئهم السمحاء مجافية لروح شريعتهم الفراء، فسياسة المفاسدة السليمة حسول التقافة متصلة في العقييدة الإسلامية ، نابعة من صميم تلك العقيدة ، ذلك أنها إحدى مظاهر حرية الفكر التي اعتنقها المسلمون منذ بداية الدعوة وتميزت بهاعقidiتهم وحضارتهم كا يشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء . وكانت تلك الحرية شريعة المعاملة بينهم وبين سائر الشعوب ، فلا تمييز بسبب العنصر أو الملة أو اللون .

النافع السلمي مكتوب من المداري

وفي الحق أن سياسة الدولة الإسلامية
في التنافس السلي حول الثقافة مستمدّة من
البادئ الإسلامى ولنست تخطيطاً سياسياً
مرهوناً بمحين أو مرحلة تاريخية مؤقتة ،
ومصداق ذلك أنه كان يسع المسلمين أن
يفرضوا قوتهم ونفوذهم في الميدان الثقافي
أسوة بالمليادين السياسية وال العسكرية ، فيشرروا
صلاح الثقافة على المسيحيين ، يحرمونهم منها
ولا يعطونهم بديلاً ، يستولون . وهو الغالبون .
على مكتباتهم وعلمائهم وثمرات حضارتهم
ولا يسمحون لهم الاطلاع على مكتنون العلوم
الإسلامية و المعارفها ، فقد كانت حاجة الروم

بـين نـطة صـلحـاً دـامـها وـأـلـقـيـ قـطـمـةـ ذـهـبـيةـ فـيـ مـقـابـلـ حـضـورـ هـذـاـ عـالـمـ إـلـيـهـ .

ولـكـنـ تـيوـفـيلـ أـصـرـ عـلـىـ رـفـضـ هـذـاـ عـرـضـ بـدـعـوـيـ أـنـ أـبـحـاثـ لـيـوـ كـانـتـ تـمـلـقـ فـيـ شـطـرـ مـنـهـ بـأـسـرـ اـرـ الدـوـلـةـ وـشـئـونـهـ الـمـسـكـرـيـةـ .

وـحـينـ نـذـكـرـ قـوـةـ الدـوـلـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ فـيـ هـدـيـةـ الـمـأـمـونـ وـسـمـيـ الدـوـلـةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ إـلـىـ خـطـبـ وـدـهـاـ وـالـدـخـولـ مـعـهـاـ فـيـ عـلـاقـاتـ عـهـدـيـةـ ،ـ مـدـرـكـ مـبـلـغـ سـنـاهـ هـذـاـ عـرـضـ مـنـ جـانـبـ الـمـأـمـونـ وـمـدـىـ حـرـصـ قـيـوـفـيلـ عـلـىـ مـنـافـسـةـ الـخـلـيـفـةـ فـيـ مـيدـانـ الـبـحـثـ الـعـلـىـ .ـ فـقـدـ كـانـ مـاـ عـرـضـهـ الـمـأـمـونـ مـنـ توـقـيـعـ مـعاـهـدـةـ لـلـصـلـحـ بـيـنـ الـمـسـكـرـيـنـ .ـ رـغـمـ أـنـ مـيـزانـ الـقـوـىـ فـيـ صـالـحـهـ يـنـطـوـيـ عـلـىـ تـضـحـيـةـ مـنـهـ .ـ وـلـكـنـهـ أـدـرـكـ بـشـافـبـ نـظـرـهـ وـوـاسـعـ فـسـكـرـهـ أـنـ قـدـومـ هـذـاـ عـالـمـ الـعـبـرـيـ إـلـىـ بـغـدـادـ كـفـاءـ هـذـهـ التـضـحـيـةـ ،ـ بـلـ إـنـهـ يـوـجـحـاـ إـنـ لـمـ يـكـنـ يـعـدـهـاـ فـيـ الـمـيـزانـ الصـحـيـحـ الـأـمـورـ .ـ وـفـيـ هـذـاـ أـلـبـغـ دـلـيلـ عـلـىـ تـقـدـيرـ الـحـكـامـ الـمـسـلـيـنـ لـلـعـلـمـ وـاعـتـدـادـهـمـ بـهـ كـدـعـامـةـ أـسـاسـيـةـ مـنـ دـعـائـمـ دـوـلـتـهـمـ وـرـكـيـزةـ الـسـيـادـيـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ فـيـ أـرـجـاءـ الـعـالـمـ .ـ

وـدـلـالـةـ هـذـاـ المـوـقـفـ كـذـلـكـ هـيـ حـرـصـ الـمـأـمـونـ عـلـىـ جـمـلـ السـلـامـ مـنـ طـرـيقـ التـبـادـلـ الـتـقـافـ بـدـيـلـاـ للـحـرـبـ .ـ وـقـدـ كـانـ فـيـ وـسـعـ خـلـيـفـةـ الـمـسـلـيـنـ أـنـ يـشـنـ حـلـةـ تـأـبـيـةـ عـلـىـ اـمـبـاطـورـ [ـ الـبـقـيـةـ عـلـىـ صـفـةـ ١٨٨ـ]ـ

فـيـ جـهـودـهـ الـبـنـوـلـةـ فـيـ سـبـيلـ قـضـيـةـ الـعـلـمـ مـنـ أـجلـ الـحـيـاةـ وـالـحـضـارـةـ وـالـحـرـبـ ،ـ مـنـهـ مـنـ آـمـنـ بـالـعـقـيـدـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ عـنـ اـقـتـاعـ وـيـقـيـنـ بـالـحـقـ ،ـ وـمـنـهـ مـنـ بـقـىـ هـلـيـ دـيـنـهـ لـاـ يـخـشـيـ جـوـرـآـ عـلـيـهـ وـلـاـ اـضـطـهـادـ .ـ

عـوـقـبـ لـلـخـلـيـفـةـ الـمـأـمـونـ فـيـ التـنـافـسـ السـلـيـ
وـفـيـ خـتـامـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ نـسـوقـ مـشـالـاـ تـارـيـخـياـ يـشـهـدـ بـمـاـ بـلـغـهـ الـدـوـلـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ هـذـهـاـ الزـاـهـرـ مـنـ ذـرـوـةـ السـبـقـ بـاتـهـاجـ سـيـاسـةـ التـنـافـسـ السـلـيـ حولـ الثـقـافـةـ مـعـ جـيـرانـهـاـ مـنـ الـأـمـمـ وـالـشـعـوبـ الـتـيـ تـخـالـفـهـاـ فـيـ الـعـقـيـدـةـ .ـ

فـقـدـ نـمـاـ إـلـىـ عـلـمـ الـخـلـيـفـةـ «ـ الـمـأـمـونـ »ـ .ـ وـقـدـ بـلـغـ اـهـتـامـهـ بـالـثـقـافـةـ حـدـاـ لـيـسـ لـهـ سـاـبـقـ فـيـ تـارـيـخـ الـنـهـضـاتـ الـعـلـمـيـةـ .ـ نـبـأـ عـالـمـ روـمـيـ فـابـغـ يـدـعـيـ «ـ لـيـوـ »ـ ذـاعـ صـيـيـتهـ فـيـ عـلـومـ الـفـلـاكـ وـالـهـنـدـسـةـ .ـ فـتـاقـ إـلـىـ قـدـومـهـ إـلـىـ دـيـارـ الـإـسـلـامـ لـلـإـفـادـةـ بـعـلـيـهـ الـوـاسـعـ فـيـ الـرـيـاضـيـاتـ فـيـ تـدـيـعـ حـرـكـةـ الـبـعـثـ الـعـلـىـ ،ـ وـأـنـقـذـ لـذـلـكـ سـفـارـةـ خـاصـةـ إـلـىـ الـأـمـبـاطـورـ الـبـيـزـنـطـيـ «ـ تـيوـنـيـلـ »ـ يـطـلـبـ إـلـيـهـ حـضـورـ هـذـاـ عـالـمـ إـلـىـ بـغـدـادـ لـفـقـرـةـ قـصـيـرـةـ مـنـ الـزـمـنـ .ـ وـقـالـ :ـ خـلـيـفـةـ الـمـسـلـيـنـ فـيـ رـسـالـتـهـ «ـ إـنـهـ يـعـتـبرـ ذـلـكـ حـمـلاـ وـدـيـاـ »ـ غـيـرـ أـنـ تـيوـفـيلـ لـمـ يـسـتـجـبـ لـهـ ،ـ وـتـكـرـوتـ الـمـفـاوـضـاتـ حـقـيـقـةـ الـأـمـرـ بـالـمـأـمـونـ أـنـ عـرـضـ عـلـىـ اـمـبـاطـورـ

المنافس السامي حول الثقافة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

٣ -

ازدهر التبادل الثقافي في ظل الدولة الإسلامية . ولا سيما في عصور العباسين في بغداد والأمويين في الأندلس ، إذ أدركوا

الخلفاء . بعد أن اتسع نطاق الدولة الإسلامية وبسطت ظلها على كثيرون من بلاد العالم القائم

حيثند . أنه لا حائل بين العقيدة الإسلامية وبين انتشار في ربوع الأرض فلا ضرورة

لإذن للجهاد ما لم يصد عاد عن سبيل إلهه ، والأولى أن تدخل الدولة الإسلامية في علاقات

عهديها مع العالم المسيحي في ذلك الحين . فقد

امتدت رقعة الإسلام من أطراف الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وذلك

فضلاً عن امتداد أرجاءها شمالاً وجنوباً .

وكانت إمبراطورية الروم المسيحية —

الإمبراطورية البيزنطية — تبسط سلطانها على آسيا الصغرى ولبلاد البلقان وإيطاليا .

ولم تقصر الإمبراطورية الإسلامية علاقاتها

الثقافية على الدولة البيزنطية ، فقد امتدت بها

إلى سائر الملك من الأمم ، فسارت بهم

الصلات الجيدة من تبادل المنافع المادية ، فهو يقرب بين النظارات المتباينة ويهيئ

النفوس لاقتناع بذور الشك وعدم الثقة ، فيصبح الطريق مهداً للتعاون والتضامن

في ظل عالم يسوده الأمن والسلام .

وليس أفضل من رسالة الفكر المشترك

سفيراً لإنشاء العلاقات الودية وتوطيد

الروابط بين الأمم والشعوب ذلك أن تبادل

المعاني والأفكار لا يقل أثراً في دعم

الصلات الجيدة من تبادل المنافع المادية ،

فهو يقرب بين النظارات المتباينة ويهيئ

النفوس لاقتناع بذور الشك وعدم الثقة ،

فيصبح الطريق مهداً للتعاون والتضامن

في ظل عالم يسوده الأمن والسلام .